ويبقى السادس من تشرين ملحمة العصر العربي الحديث

المقاتل الذي كان أسطورياً في الدفاع عن كرامة الأمة وطهر ترابها

إسماعيل مروة

(جاء تشرين يا حبيبة عمري)
عبارة ذهبت في ذاكرتنا، رسخت في وجداننا، قالها شاعر، نفّذها مقاتل، طار بها نسر، أبحر بها محارب، فكان تشرين الحب والحرب، الخريف لتنزرع أوراق الشجر في أرض الوطن، لتثبت بطولة ودماً وافتداء، وتكون منارة نصر لأمة طال شوقها للانتصار، ولشعب لم يدركه الإحباط واليأس.. إحدى وخمسون سنة مرت، وما يزال عرق الأس أخضر فوق مراقد الأحباب والشهداء الذين لبّوا نداء الأرض والحق بشوق لا مثيل له.

إن نهر التاريخ ينبع في الشام أيلغي التاريخ طرح هجين؟

أرض الأمة بغناها التاريخي، بل إن الأحزاب السياسية المتصارعة على الساحة السورية والعربية من يسار ويمين، ومن كل الأصناف الوضعية والدينية المقدسة كانت جنباً إلى جنب في هذه الحرب التي كانت هوية للجميع، وكرامة لكل من يحيا على الأرض، إن كان عربياً أو كردياً أو آشورياً أو ما شئت من تسميات.. وربما كانت وحدة الأصوات المميزة هذه وراء مخططات الغرب وفي مقدمتها مخطط السياسة الصهيونية والأميركية هنري كيسنجر ليعمل على تفتيت عوامل الوحدة هذه، بل والعمل على قتلها من الجذور خلال عقود من حياة الأمة.

شعراء ومعلقات وإبداع

كل الشعراء بلا استثناء كانوا في مرحلة سبات وراحة، وربما اختاروا موضوعات أخرى غير الحرب والكرامة والأمة، وبعضهم نكص لجلد الذات من نزار قباني إلى صلاح عبد الصبور إلى سليمان العيسى، وربما توقف بعضهم عن قول الشعر، لكن حرب تشرين أعادتهم من جديد إلى ساحة الإبداع، ومن موضوعاتهم التي تمر مروراً إلى المعلقات على أستار الأدب الحديث، بل وأزعم أن الشعراء العرب اكتشفوا أنفسهم من المحيط إلى الخليج، وحملوا هويتهم الأصيلة، ولم يختلفوا على شكل القصيدة، ولم يتناقشوا في ثوبها، وكل واحد منهم أخذ مثالاً من عمق التراث والشعر وحدا حذوه، وكل واحد استعار منارات من التراث وطفق يخاطبها بكل فخر، وفي هذا اليوم لم يتخلف شاعر يتحدث العربية عن التغني بحرب تشرين، وإن كان المجال لا يتسع لعرض النماذج كلها، فإنني سأعرض الأكثر شهرة وتأثيراً وسيرورة، وما يسهل على القارئ العودة إليه للاستزادة.

الخالدون سليمان العيسى

بعد صمت طويل تبع نكسة حزيران انطلق سليمان العيسى بحنجرة النصر فقدّم قصيدته «الخالدون» وهي من عيون الشعر العربي الحديث، ومن أعلى شعره الوطني، ومن أكثر شعره قوة وبياناً وصورة في نظر النقد، وأثبتت أن النصر هو الذي فجّر العبقرية الشعرية: ناداهم البرق فاجتازوه وانهمروا
عند الشهيد تلاقى الله والبشر
ناداهم الموت فاختاروه أغنية
خضراء ما مسّها عود ولا وتر
تقدس المطر المجدول صاعقة
وزنبقاً يا شموخ الأرض يا مَطر
تشرين يا موعد الفرسان يا قدراً
يحنّو على قدمي ميلاده القدر
أطلقتها من جحيم اليأس قافلة
من العطاش بقنديل الضحى كفروا
وأينعت بالدم الجولان وانضرت
سيناء يا روعة الإكليل ينضفر
اسحبي الذيل يا قنيطرة المجد
وكحل جفنيك يا حرمون
سبقت ظلها خيول هشام
وأفاقت من نومها السكين
إن أقصى ما يغضب الله فكر
دجنوه وكاتب عنّين
وطني يا قصيدة النار والورد
تغنت بما صنعت القرون
إن نهر التاريخ ينبع في الشام
أيلغي التاريخ طرح هجين؟
نحن أصل الأشياء لا فورد باق
فوق ايوانه ولا رابين
نحن عكا نحن كرمل حيفا
وجبال الجليل واللطرون
كل ليمونة ستنجب طفلاً
ومحال أن ينتهي الليمون

كتاب وصفحات خالدة

وفي النثر الإبداعي والإعلامي كانت الحكاية أكثر نبلاً، وخلّد كتابنا حرب تشرين وأبطالها، ولا يستثنى كاتب من عبد السلام العجيلي «أزاهير تشرين المدماة» إلى فارس زرزور إلى علي عقلة عرسان «صخرة الجولان» إلى غادة السمان إلى كوليت الخوري «سنوات الحب والحرب» إلى جان أنكسان وكل الإعلاميين والكتاب، ومن بحور النثر الإبداعي اختار قصة مؤثرة للكاتبة الكبيرة كوليت الخوري نشرتها في أيام تشرين، ثم جمعتها في كتاب وقد قدم الكاتب الروائي الكبير حنا مينة روايته المرصد، وقدم بالاشتراك مع د. نجاح العطار كتاباً توثيقياً غاية في الأهمية والقيمة، ليكون تشرين ملهماً لا يدانيه حدث في التاريخ الحديث.

لوحة وبانوراما للخلود

أما في الفن التشكيلي، فلن أتحدث عن التجارب وهي كثيرة، ولكن حسبنا أن ندخل بانوراما حرب تشرين التحريرية لنقف باحترام وإجلال أمام الفنانين التشكيليين السوريين ونقاد الفن التشكيلي الذين خلّدوا بريشتهم ونقدهم هذه الملحمة التاريخية البطولية العظيمة، والتي ارتسمت في الوجدان، ورسخت من لوحات مزجت الماضي بالحاضر، وسجلت بطولات تشرين بتوثيق وإبداع فاق ما يمكن أن يكون منه في أوقات أخرى، لأن الفنانين التشكيليين كما الكاتب والشعراء، ودون أي استثناء كانوا صوتاً واحداً هو صوت الوطن والانتصار وتشرين.

تشرين والدراما

وقفنا مرات عدة مع صور تشرين في الدراما السورية، وقد أنتج التلفزيون العربي السوري عدداً من الأعمال الطازجة العفوية التي تركت أثراً كبيراً مثل «عواء الذئب» و«العريس» وكذلك قدمت السينما في سورية ومصر وكانت أفلام تبقى في الذاكرة عن العبور والجولان والمرصد من أهمها «الرصاصة لا تزال في جيبي» وعلى الرغم من السرعة في الإنجاز إلا أنها بعفويتها بقيت علامات مهمة في تاريخ الفن العربي.

امرأة من تشرين
للكاتبة الكبيرة كوليت الخوري

– ممنوع الدخول
وتصيح المرأة باكية:
– ممنوع؟ كيف؟ يجب أن أرى ابني!
ويردد نفر الشرطة العسكرية على بوابة المستشفى بهدوء:
– يا أختي قلت لك الدخول ممنوع، ألا ترين الناس؟
وتنشج المرأة
ويتدافع الناس أمام الباب.. كلّ جاء يبحث عن ابنه أو أخيه المصاب..
– أرجوك يا ابني.. اسمح لي بالدخول.. يجب أن أرى ولدي.. ويرتفع نواحها..
ويصر الشرطي:
– يا أختي.. طولي بالك.. ممنوع الدخول.. ثم لا مجال الآن للتفتيش عن ابنك!
– أرجوك يا ولدي..
وتتلفت حولها مستنجدة:
– ابني.. يجب أن أرى ابني..
وتلمح صبية بلباس الدفاع المدني مقتربة فتهرع صوبها.. وتناديها متوسلة:
– أرجوك يا ابنتي.. أقبل يديك..
وتسأل الفتاة متعاطفة:
– خير يا خالة. ما بك؟
تشرح المرأة
– ابني.. جرح في الحرب.. أصيب ولدي يا ولدي.. وهو هنا.. وأريد أن أراه..
– ومن قال لك إنه هنا؟
– هو.. هو بعث إلي بخبر..
وتمسح عينيها بمنديل رأسها وتمد يدها إلى جيب سروالها الطويل، تخرج منه ورقة صغيرة تقدمها إلى الصبية:
– اقرئي.. يا ابنتي.. انظري ما في الورقة.. أنا لا أعرف القراءة.
وتقرأ الصبية:
– أنا بخير.. موجود في مشفى المواساة طابق ثان غرفة 19 ابنك مصطفى.
وتنحب المرأة:
– أحد الجيران حمل إليّ هذه الورقة.. أتوسل إليك يا ابنتي..
ويرتفع عويلها:
– يبدو أنه جريح.. يا ولدي..
وتلتفت الفتاة إلى الشرطي ثم تهز رأسها وتقول للأم:
– انتظري هنا.. سأتبين الأمر بنفسي..
وتتجه صوب مدخل المشفى وهي تحس بأن خطواتها تنغرس في نواح أم منهارة..
***
ويظل النواح متواصلاً، ويقطعه من حين إلى آخر صوت أحد أنفار الشرطة العسكرية وهو يردد بين الحشود:
– ممنوع الدخول لا نستطيع أن نبحث في السجلات الآن.
يظل النواح أنيناً حتى عودة الصبية:
– فعلاً يا خالة ابنك هنا.. وقد استأذنت الطبيب.. تعالي معي.
وتهرول الأم وراء الصبية، ويأتي صوتها متأتئاً:
– يا ابني... يا رب أرجو ألا يكون جرحه عميقاً أرجو أن يكون خدشاً بسيطاً.. هل رأيته؟
وتجيب الصبية بصدق:
– لا لم أره.. إحدى الممرضات قالي لي إنه هنا، فاستأذنت المدير..

تنحني على السرير وتقبل الساقين المبتورتين في إجلال ثم تنتصب من جديد

– يا رب.. أرجو أن يكون خدشاً بسيطاً.. يا إلهي.. لن أحتمل..
***
عند باب القاعة الكبيرة المكتظة بالأسرّة تقف الأم قلقة، وتطير نظراتها على الجرحى.. وتلمحه في نهاية القاعة.. كالنسر جالساً في سريره.. كالنصر مبتسماً..
وتكون الصبية قد سبقتها إليه.. وتهرع الأم سابحة في دمعها:
– يا ابني.. يا حبيبي.. ما بك؟
ويبتسم ابن العشرين في تفاؤل:
– أنا بخير.
– أين أصبت؟ أين الجرح؟
ودون أن تنتظر الجواب، وبعفوية تكشف عنه الغطاء، فتجحظ عيناها.. وتجمد مشدوهة..
ويفاجأ الشاب بحركتها السريعة.. فيغمغم كأنما معتذراً:
– هكذا حصل.. بتروا لي الساقين!
لثوان تظل الأم جامدة تحملق في السرير الفارغ!
وفجأة تنتفض وترفع رأسها كالليوة وتنطق بحزم:
– «شو عليه؟» ما هم؟ ما هم؟ ثمن النصر غال يا ولدي..
وبسرعة تنحني على السرير وتقبل الساقين المبتورتين في إجلال.. ثم تنتصب من جديد.
– ما هم؟ سننتصر على الأعداء بإذن الله.. سننتصر وثمن النصر يا ولدي غال..
وتقترب لتطبع على جبين ابنها الوضاح قبلة تشجيع وتتمتم:
– الحمد لله أنك ما زلت على قيد الحياة.
***
كنت بالمصادفة أراقب المشهد.
وأمام تلك الأم المنهارة التي حولتها الصدمة إلى جبل من التصميم والحزم.. أحنيت رأسي في خشوع وأنا أفكر في أن هذا الشعب العظيم..
هذا الشعب المستعد لأن يقدم الأغلى من أجل هذه الأرض..
هذا الشعب، عندما يصمم، قادر على صنع المعجزات.

برجك اليوم 10/6

نجلاء قباني

الحمل
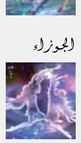
ربما تتعرف على أصدقاء جدد وقد تستفيد الكثير من الأفكار الإيجابية أو تتلقى مساعدات تفتح أبواباً مغلقة وحلولاً مبدئية لكل ما شغل بالك بإمكانك التنازل للاستمرار في النجاح.
عاطفياً: أنت في الشهر الأفضل فاستفد منه لأبارك لك بتغيرات أساسية هذه الفترة فالأمور العاطفية للتغيير.

الثور

يوم فيه مشاكل كالإحباط أو اليأس أو المزاج السيئ أو نوبات من الغضب التي يجب أن تتغلب عليها قبل أن تفقد أصدقاء أنت تحبهم فالأفضل أن تهدأ أمورك وتقل من كلامك العصبي وأن تعالج أمورك ومشاكلك بحكمة قبل اتخاذ أي قرار يخصك. عاطفياً: قد يبتلك شعور بالظلم سببه إحساسك بالغيرة بسبب نجاح الآخرين من دون أي مجهود.

الجوزاء

حاول أن تهتم بصحتك اليوم وأن تأخذ قسطاً من الراحة ولا تتسرع في أحكامك، فاليوم ليس للراحة بل عليك إيجاد حلول لكل ما يشغل بالك لأن العمل كثير.
عاطفياً: أنت تقضي أغلب وقتك في المنزل أو في العمل وطالما أن القلق سيرافقك في العمل فهو بالضرورة سيلاحقك إلى البيت.

السرطان

أنت تضع خططاً للتحرك وترتب معادلة جيدة تقيسها على حجم تطلعاتك وطموحاتك فحاول أن تجعل ثقتك بنفسك وبعملك نقاط ارتكاز ونقطة انطلاق تعينك على رفع حياتك إلى مستوى أعلى وأفضل. عاطفياً: بيتك مملوء بالزيارات وقد تنشغل بأمور الأشقاء أو الشقيقات وقد تكون خطبة أو ارتباطاً لمن كان خالياً وقد تحلم بشراء عقار جديد.

الأسد
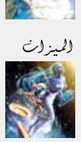
الأمور الشخصية تسبب لك قلقاً وقد تشعر أن لا أحد ممن حولك يستطيع فهمك أو دعمك فأنت تقلل من المخاطر المالية والمهنية، حاول أن ترتب أمورك الشخصية.
عاطفياً: ربما تغضبك أشياء لا تعنيك كأن يغضبك ظلم وقع على من تحب فانتبه من العصبية.

العذراء

اشرح مشاعرك لمن تثق به واحط نفسك باشخاص إيجابيين واقترب من أفراد العائلة أو ممن تحب فأمورك جيدة ولكنها ستحتاج لاهتمامك وهدوئك لأنك عصبي أحياناً وتحب أن تفرض اوامرك وتنفذ في كل الأحوال.
عاطفياً: اليوم لسفر أو لضيوف أو لأحد الأصدقاء الذي قد يحتاج مساعدتك فحولك ضجة لكنها تحمل أوقاتاً ممتازة.

الميزان

تفكر اليوم بمستحقات مادية كبيرة ترهقك وتفوق دخلك لا تستطيع دفعها وقد تضايقك بعض المستحقات المالية المستوجبة عليك أو مشروع تأجل من فترة.
عاطفياً: أمورك العاطفية اليوم لمناسبات وقد تحسن علاقاتك لتسير باتجاه الأفضل وحولك مرح وتسلية.

العقرب

تشعر بحماسة منقطعة النظير وبالثقة بالنفس فاليوم إيجابي وبإمكانك أن تكون محط أنظار الزملاء لأنك تسعى لملاقاة المحبين وتفرح لتأييدهم لك أو تفرح للتغيرات مع من تحب.
عاطفياً: أظن أنك مشغول بالأمور العائلية فمن حولك يمنحك المساعدة والمحبة وأنت تكسب أية قضية تريدها.

القوس

أنت حساس وطيب وقد تلوم نفسك على هذه الصفات هذه الفترة، ولكني لا أنصحك بهذا، فوجود أشخاص انتهازيين حولنا يفكرون في مصلحتهم على حسابنا لا يعني أن نتخلى عن صفاتنا الإيجابية بل يجب أن نتمسك بها أكثر.. عاطفياً: المناخ الفلكي معاكس وغير آمن لك، مضايقات عاطفية واستفزازات.

الجدي
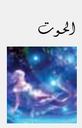
يشعر الأصدقاء بالرغبة في البقاء إلى جانبك بسبب إشراقك وتفاؤلك وقد تزور أو تزار وهذا يجعلك تقضي الكثير من اللقاءات المتعددة والأوقات المسلية مع الأصدقاء أو الأهل.
عاطفياً: أنت تطور حياتك باستقرار أو طفل جديد أو تبادر بإنشاء علاقات جديدة.

الدلو

قد تقاد اليوم إلى تصرفات عشوائية أو تقوم بخيارات غير أكيدة، فالمشاكل أنت تصنعها لأنك عصبي وحولك أيضاً الكثير من الإحباط وعدم الارتياح نتيجة أوضاع عامة قد لا تهمك.
عاطفياً: تتعرض لاتهام أو انتقاد يجعلك تفكر وتحسب وقد تتعرض لظلم أو تدخل أو نصائح.

الحوت

تستمتع بجديد يعجبك أو قطاف لجهود سابقة وتتحسن علاقاتك بالمحيط وقد تفكر بسفر إذا كان وضعك يسمح لأن فترة الخلاص الحقيقية تعم على حياتك فحاول أن تستفيد من حظوظك الحسنة.
عاطفياً: أنت في الشهر الأفضل للتعارف ولتكون لبقاً في عروضك وتمتلك معنويات مرتفعة.